

بين عامين

أنا ونفسي...!

للأستاذ علي الطنطاوي

... كنت ناعماً ولكن قلبي لم ينام ، بل كان يقظان مهزني لأفنيق ، ويفرني بشتي الألاعيب يلوح لي بها ، ملفوفة بثياب الأحلام زاهية وكاوية ، سارة ومحزنة ... فلا أحفل بها ، فلما ضاق بي ذرعاً ، وضمني على حافة الهاوية ، ودفنني ... فأفقت فزعاً ...

فاذا العام على وشك الرحيل !

نظرت من النافذة فاذا كل شيء أراه نائم ؛ هذه النخلة التي تقوم حيال شبياكي ، وقبة الأعظمية التي تبدو من ورائها في عظمة وجلال ، ودجلة التي تجري صامتة مهيبية ، والقمر الذي يفصل ماها بشماعه ...

ما أفساه ! وما أقسى صيادة الكروب ! فهي قد تنزع من الباحث قلبه . وأخذ شيطان ريد الباحث بوسوس اليه : «ولكن أصادقة حقاً تلك النتائج التي أدت إليها تجاربك» ؟ نعم إن الحمى لم تأت أياً من هؤلاء الرجال الذين ناموا في هذا البيت ، ولكن ما أدرانا أنهم بطبيعتهم حصينون من الحمى ، فهي لا تأتهم أبداً ؟ وكان ريد وكارول سالا فوك وجرنجان أمرا هو أقصى ما سأله ضابط جندياً فأجابهما اليه ، ومع هذا فقد قام الاثنان من جديد فحقنا جرنجان بدم وبى أشد الوباء جاها به من دم مريض ، وقرصوا فوك ببعوض كان قرص مريضى ماتوا من الداء . فأصيب جرنجان وفوك بالأم جسام . واحتقن وجهاهما ، واحمرت بالدم عيونهما ، وزلا وادى الموت ولكنهما عبراه سالين . فحمد ريد ربه ؛ حمده لخلاصهما ، ولكنه حمده على الأكثر لما تبين له أنهما لم يكونا حصينين من الحمى لما بانا في بيت الكرب عشرين ليلة

ووهبوا كلا من فوك وجرنجان عن صنيمهما ثمانمائة ريال ، وهو مبلغ لم يكن صغيراً في تلك الأيام

أحمد زكي

(يتبع)

وإذا على الطريق شبح يسير مبهوكاً !

على الطريق الذي لا يمتد في سهل ولا وعر ، ولا يسير على سفح جبل ، ولا شاطئ بحر ، ولا يسلك الصحراء ، ولا يخترق البساتين ... ولكنه يلف السهل والوعر ، والجبل والبحر ، والصحراء والبساتين وكل ما محتويه ، ومن يكون فيها ..

على الطريق الطويل الذي يلوح نكط أبيض ، يغيب أوله في ظلام الأزل ، ويختق آخره في ضباب الأبد ..

رأيت شبحاً يسير على .. طريق «الزمان» !

وسمعت صائحاً بصيح بالطبيعة : أن تيقظي ، إن العام يرحل الآن !

ففتحت النخلة عينها ونظرت ، فلما رأته قالت : قد رأيت عشرات مثله تأتي وتذهب ، فلم تبدل شيئاً . . الفأس لا تزال باقية ، وهذا الوحش البشري لا يزال ينتظر تمرى ليسلبيه ؛ ثم إذا قنط منى كافأني بالفأس والنار ... فإلى وللامم الراحل ؟

وأغمضت عينها فنامت ، ولم تكثر !

ونظرت القبة ، فلما أبصرته قالت : قد رأيت مئات مثله تجيء وتروح ، لم تبدل شيئاً ؛ فهذا النخيل قائم حولي كما كان ، والشمس تطلع على كل يوم وتغيب ، والنجوم تسطع فوق كل ليلة ، والأرض تنتظرنى ، تريد أن أهرم فتجذب أحجارى إليها وأنا كائن .. وكل شيء على حاله لم يتبدل إلا الانسان : كان الخليفة يمشي تحتي ، ويخطر بين أساطيني في حلال المجد وأردية الجلال ؛ إن أمر أطاعت الدنيا ، وإن نادى لبي الدهر ، وإن مال مالت الأرض ؛ وكان الناس يعلفون في أجلة أجداداً ، عباداً أذلاء لله ، وملوكاً أعززة على الناس .. فأصبحت وحيدة منعزلة ، لا أرى إلا هذه الفئات من العامة المساكين الذين نعروا من كل جاء إلا جاء العبادة ، ومجد إلا مجد الآخرة .. فإلى وللامم الراحل ؟

وأغمضت عينها ، وعادت تحلم ، ولم تكثر !

وتنهت دجلة ونظرت ، فلما رأته قالت : قد رأيت ألوفاً مثله تمر في هذه الطريق فلم تعمل في الكون شيئاً ، ولم تغير إلا الانسان ؛ كانت تقوم على شاطئ القصور الفخمة ، تنوح هامها العظيمة ، ويحل أرجاءها الجلال ، ويمثل في أمهاتها المجد ، ويقف على بابها التاريخ ، يصدر عنها ، ويكتب حديثها ، وتنبثق

سحبه أو بصره ، لا تنقص نفسه شيئاً ، بل لقد يكون الأعمى الأصمّ أكل نفساً ، وأقوى عقلاً ، وأسمى روحاً ، من السميع البصير ؛ وإنك لتعلمين هذا ، ولكنك « نفس سوء » تريدین الاستمتاع بشهواتك ، ونحن لا نحيا لنيل الشهوات !
قالت الأولى : فلم إذن نحيا بأيتها « النفس المفكرة » ؟
قالت : نحيا لتككشف خبايا الوجود ، لنستطلع طلع الكائنات ، لنعرف نواميس الكون وأسرار الطبيعة . . . من أجل هذا نحيا

فانبرت لها نفسى الثالثة . . . فقالت :

— كنت أظنك عاقلة تفهمين وتمرقين ، فإذا أنت جاهلة .
ويحك ! ما نحن والوجود ؟ مالنا وللطبيعة ؟ ماذا يعنيننا أ كانت الجيرة نهرآ في السماء ، أم كانت مجموعة من الكواكب ؟ وماذا ينفعنا أن يكون في المريح ناس ، أو يكون مقفراً لا ناس فيه ؟ . . . مالنا ولهذا الفضول ؟

قالت الثانية : إنك « نفس شاعرة » تنكرين قيمة العلم
قالت : إن هذا العلم خسران لك باحتماء إنك كنت تزين في الكسوف حادثاً غريباً مليئاً بالأسرار يبعث فيك عالمات من العواطف ، فلما علمت أنه حادث طبيعي : كوكب يقوم بمحذاء كوكب ، ضاع معناه ، وانتفت أسراره ، ولم يعد يثير فيك عاطفة ، أو يهيج فيك حساً
قالت الثانية : وما قيمة العاطفة ؟ أ تريدین أن ندع العلم من أجل عاطفة ؟

قالت الثالثة : لا . بل تعلمي ، ولكن تعلمي ما تحتاجين إليه ؛ العلم دواء يؤخذ بمقدار الحاجة ، ولكن الشعور غذاء لا يستغنى عنه ، فنحن نحيا لنرى الجمال ونستمتع به ، ونتذوقه في الطبيعة وفي الانسان وفي الفن . . . من أجل هذا نحيا

فوثبت النفس الرابعة « النفس المؤمنة الطمئنة » فقالت :
بالسخر !

قالت الثالثة وقد غاظها ما قالت : أي سخر تزين من فضلك ؟ إذا كنا لا نرى الجمال فلم نحيا ؟
قالت الرابعة متهكة : كأنك تحيين الآن إنك ياسيدتي سجيناً فاسي لتتخلصي من قيود السجن ، ثم انطلق في فضاء

منها أشعة الحضارة والفن ، وتسطع منها أنوار العلم والأدب ، وتومض في شرفاتها وأروقها العائيم التي كانت على أشرف رؤوس وأحفلها بالنضائل والعلوم . . . فلم يبق من هذا كله إلا أطلال ، يريدون أن يطمسوا اليوم آثارها وينظفوا عليها بقية . . . ولكن ذلك لن يدوم ؛ إن طريق الزمن لا يزال مسلوكة . . . ثم سمعت وعادت بحجري كما كانت بحجري ولم تكترث !

وأنصت القمر وأطل ينظر ، فلما رأى العام الراحل قال :
أقد رأيت ملايين مثله ، وقد ملئت من السنين وكثر المصور ، فإلى وله ؟ وعاد بفيض نوره على الكون ولم يكترث !
وبقيت وحدي !

بقيت وحيداً . . . فنظرت في نفسي :

أقد صحبت سبعاً وعشرين قافلة من قوافل الزمان . . . فهل اقتربت من آمالي ؟ هل دنوت من الناية التي أسى إليها في سفري ؟
ثم سألت نفسي : ما هي الناية التي تسمين إليها ؟ أتسيرين إلى غير ما نهاية ، كلما مر عام تعلقت به فمست معه حتى يضيق بك عام من الأعوام فيقذف بك إلى وادي الموت ؟ ألا تعلمين إلى أين المسير ؟

ولم تكن النفس ترقب مثل هذا السؤال ، فاضطربت اضطراباً شديداً ، وكثرت فيها الآراء ، واشتد بين أعضائها الخلاف ، ثم انشقت انشقاقاً ، وانقسمت أحزاباً ، وانتشرت نفوساً

قالت النفس الأولى : الناية يا صاحبي واضحة ؛ إننا نسعى لخدمة هذا الجسم الذي نحمله ، نحيا لسد حاجاته ، وإجابة رغباته ، وإمتاعه بملذاته

قالت الثانية : خست أيتها « النفس الفاجرة ! » إننا لم نسخر من أجل هذا المنصر الأجنبي ؛ إن الجسم ليس منا
قالت الأولى : أفهو إذن من غيرنا ؟ وقهقهة ضاحكة

قالت : اسخري من نفسك ، إنه لو كان منا ، لما عشنا إلا فيه ولم نعش بعده ؛ إنه ثوب نلبسه ونخلعه ، أفيتكون الثوب جزءاً من اللابس ؟

قالت الأولى : إنني لم أفهم فلسفتك ، أترعمين أن يدي ورجلي ليستا مني ؟

قالت : نعم إن المرء لو قطعت يده أو رجله ، أو ذهب

الحرية ، فعيشي في الحياة الأخرى : حياة الانطلاق

ورأيت المناقشة قد طالت وغدت عملة ، وتشبثت فيها الآراء
فأسكنتم ورجمت أفكار وحدي

قلت : إنني لا أدري لساذا أحياء ؟ ولا أعرف ما هي صلتني
بالكون !

كنت أنظر إلى الدنيا من خلال الكتب ، وأشرف عليها
من نافذة المدرسة ، فأراها صغيرة كقبضة الكف ، فحسبت أني إذا
خرجت من المدرسة وحزت الشهادة قبضت عليها بيدي

وعشت بهذا الأمل ، فلم أعرف حقيقة الحياة ، ولم أعد لها
العدّة ، ولم أجد من يخبرني خبرها إلا هؤلاء الأساتذة ، وهم قوم
مخادعون ، لا يبصرون التليذ بالدنيا كما هي في ذاتها ، بل كما
يريدون هم أن تكون ...

وخرجت من المدرسة ، وهبطت من سماء الخيال إلى أرض
الحقيقة ، فاذا الطريق مزروع بالشوك ؛ فانطلقت أمشي وأجاهد
بهمة الشاب القوى الطموح ، فما قطعت من الطريق إلا قليلاً
حتى وجدت هذه (الطفيليات البشرية) تتعلق بكنتي وتستمسك
بي ، حتى إذا دنوت من أول منزل وهممت أن أستريح فيه وثبتت
فسبقتنى إليه ، فسرت أجاهد وأتقدم أؤم منزلاً آخر ، حتى هدني
التعب ، ونال مني النصب ، ولم أصل إلى شيء .

ولاح لي فجأة قصر عظيم على جانب الطريق ، تلعب قبابه
المنشأة بالذهب ، وتشرق جدرانه المغطاة بالفضة ، وتضيء
تقوسه وزخارفه في شعاع الشمس ، وبقراً على بابه بأحرف من
النور : « هذا قصر اليأس » فراعني مظهره ، وهممت أن أحمي
عن الطريق فأدخله ، ولكنني نظرت إليه أولاً ، فاذا هو موحش
مظلم في وسطه قبر مفتوح مملوء بالأساود والأفاحي ... وإذا هو
خال من البشر ، ليس فيه إلا جماعة الشعراء البائسين ، بعدون
قصائد تم لتدفن معهم في هذا القبر الأسود فلا يدري بها أحد ...
فوليت هاربا ، وآثرت العودة إلى مقارعة الشوك ،
وجهاد الحياة

عدت فقارعت وجاهدت ، فلم أصل إلى شيء ... فسألت
نفسى : هل أيأس ؟

سألتها وحدتها ، ولكنني جهرت بالحديث ، فأبقت
النأعين ...

أطلت على النخلة ، فقالت : إلامّ نجاهد وتناضل ؟ ماذا
تريد أيها الرجل ؟ ألا تنفع مثل بأت تقف في مكانك حتى
يأتيك الموت ؟

قلت : لا . إن لي غاية واحدة ، هي أن أبقى دائماً أجاهد
وأناضل !

فضحكت وقهقهت أوراها ، وعادت إلى منامها
ومدت القبة رأسها فقالت : ألا تنام مثل أيها الفتى وتحلم ؟
لساذا تمدو في طريق القبر ؟ قلت : إني أحب أن أصل إلى القبر
لأنني سأخرج منه إلى الفضاء الواسع ؛ سأخلع فيه ثوبي الجباني
ثم أنطلق صمداً

فذهبت وهي تحدث نفسها : ينطلق صمداً ؟ أنا هنا منذ ألف
ومائة سنة ولم انطلق صمداً ، ثم رجعت إلى المنام
وقالت دجلة وقد صفق لي ماؤها سروراً :

— امض أيها النلام امض ؛ إن طريقك طويل ، ولكنك
قوي ؛ إنك لا ترحم على القبر لتفتي ، ولكن تدخل من باب القبر
إلى عالم الخلود ، ها أنا قد بلغت من العمر سبعمائة وخمسين ألف
سنة ، ولكنك قد ولدت بعقلك قبلي ، وستعيش بروحك من
بمدي ... انطلق ... انطلق إلى حياة الخلود ؛ إنك ستبقى بعد
أن تموت الجبال ، وتفرق البحار ، ويحترق الهواء ... وتدفن
الصحراء !

وأمن القمر على كلامها ، وأطل على من النافذة فصاغني
بشعاعه وقال !

لقد صدقت ! إنك تعيش الآن لتعد العدة للحياة ...
إنك ستحيا حقاً حين تنطلق من قيود الجسم
ثم صمت ... وصمت !

وكان العام يقطع اللحظة الأخيرة ... فصحت به :
أنا الذي يهتم بك أيها العام ... أنا الذي يودعك ويستقبل
غيرك ، لا النخلة ولا القبة ولا دجلة ولا القمر ... تلك للفناء ،
وأنا للبقاء ... تلك تنتظر الموت ، وأنا أنتظر الحياة ... أنا أمضي
على هام السنين إلى الحياة الأخرى !

(بفرار) هي الظنطاري